موضوع علم العقيدة
ومنهجه مقارنة بالفلسفة واللاهوت

عبد الوهاب فرحات
جامعة الأمير عبد القادر

تتناسب الموضوعات التي يدرسها علم العقيدة مع الأهداف، والمقاصد التي نهض هذا العلم لتحقيقها والوفاء بها، وتتركز هذه الأهداف على إثبات العقائد الدينية بالبراهين العقلية والدفاع عنها في مواجهة الشبهات، والشكوك التي تصوب إليه، ومن هنا فإن موضوع علم العقيدة يتناول "المعلوم"[1] من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية[2].

ويرى الغزالي أن موضوعه **"الموجود بما هو موجود"**[3] أي الموجود المطلق وما يقتضيه لذاته فكأن الغزالي يسوي بين موضوع علم العقيدة والفلسفة.

أما ابن خلدون فيفرق بينهما وفي هذا المعنى يقول: "إن الجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف من حيث يتحرك، ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد"[4].

---

[1] – المعلوم أي ما يدرك ويتصور في الجملة لأنه هو الذي يعم الموجود والمعدوم والحال.

[2] –سعد الدين التفتازاني،شرح المقاصد،تح:عبد الرحمن عميرة،ط1،بيروت،عالم الكتب1989م. ج1،ص173.

[3] – نقلا: عن محي الدين الصافي، محاضرات في العقيدة، ط القاهرة 1995م، ص6.

[4] – ابن خلدون، المقدمة، ط بيروت: دار الجيل [د.ت]، ص516.

ويقرر ابن خلدون أن موضوع علم العقيدة وهو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن إن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد.

ومن كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن موضوعات علم العقيدة متعددة وتضم مسائل شتى، لكنها ليست على درجة واحدة من الأهمية لأن بعضها يعتبر بمثابة مقدمات لمباحث العلم الأساسية، ويمكن إجمال هذه الموضوعات فيما يلي:

1-**العقائد الدينية** وتندرج تحت هذه العقائد ثلاثة مباحث هي:

الإلهيات التي يدرس فيها ما يتعلق بالله تعالى وصفاته، وأفعاله، والرد على ما لهج به المشركون بما لا يليق بجنابه المقدس كزعمهم "من أن الملائكة بناته، وأن له ولدا وشريكا، وأنه ثالث ثلاثة"[1].

والنبوات التي يدرس فيها النبوة وأحوالها وصفات الأنبياء والرسل والمعجزات التي يؤيدهم الله بها، وتفنيد ما يدعيه الكفار من أن النبي ﷺ ساحر وكاهن وكذاب، وإنكار نبوته وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يتبع[2].

والسمعيات هي المسائل التي لا تتلقى إلا بالسمع أي الخبر من المعصوم ﷺ كالجنة والنار والحوض، والميزان وغيرها ومحاجة من ينكرها[3].

2-**دراسة طبيعة الشبه الموجهة إلى العقيدة** من أجل الإلمام بأبعادها حتى يتسنى الرد عليها لدفعها والقضاء عليها، ومن هنا كان لزاما على عالم العقيدة أن يتقن دراسة الأديان المخالفة

---

[1] - أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ن ط4، بيروت: دار الآفاق الجديدة 1974م، ص15.

[2] - المرجع نفسه والصفحة.

[3] - المرجع نفسه والصفحة.

والمذاهب، والنحل، والآراء التي من خلالها توجه الطعنات إلى العقيدة ولعل هذا هو الذي أدى إلى اعتبار علم العقيدة من العلوم غير الدينية عند البعض وتوجيه النقد اللاذع المقذع إليه لاشتماله على عناصر من العلوم الأخرى فلسفية وغيرها على الرغم من أن وجود هذه العناصر الدخيلة في علم العقيدة الإسلامية كان بغرض دفع الشبهات لا أكثر ولأنهم أي علماء العقيدة رأوا أن أحسن وسيلة لرد شبهات الخصوم هي أن يكون هذا الرد بوسائل الخصوم التي اعتادوها وإلا بعدت الشقة بينهم بين المناوئين وطال الجدال في الأخذ والرد إذ ليس أقوى من سلاح الخصم للقضاء على أسلوب الخصم ولعل أبرز من توسع في دراسة آراء الخصوم الإمام أبو حامد الغزالي وقد تجلى هذا في كتبه التالية: مقاصد الفلاسفة الذي بين فيه كنه مذهب الفلاسفة، ثم كر عليهم بالنقد في كتابه "تهافت الفلاسفة" وكذلك فعل مع الباطنية حيث شرح مذهبهم في كتابه "القسطاس المستقيم"، ثم نقد هذا المذهب في كتابه فضائح الباطنية ونفس الأسلوب استخدمه في نقده للنصارى وقد ظهر جليا في كتابه "الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل" وقد توسع الغزالي رحمه الله في دراسة الأديان والعقائد والملل والنحل والمذاهب المختلفة المتنوعة توسعا كان مثارا للإعجاب، وأعانه على ذلك ما طبع عليه من ذكاء حاد، وبصيرة نافذة وفي هذا المعنى يقول:"إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا و لم أر أحدا من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك"[1] لهذا كانت كتبه -رحمه الله- نسيج وحده في التزامه الأمانة والموضوعية، وأمانة النقل عنهم وسوق حججهم غير مبتورة أو مضطربة أو مشوشة، ثم مناقشتها وتفنيدها في عبارة غير مستهجنة ولا مسفة[2] ومما

---

[1] -أبو حامد الغزالي،المنقذ من الضلال،تح:جميل صليبا مع كمال عياد، ط بيروت:دار الأندلس1996،ص94.

[2] - الغزالي،الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل تح:محمد عبد الله الشرقاوي،ط3،القاهرة،1990، ص24.

يسجل هنا على ردود الغزالي تميزها وتوسعها -رحمه الله- في استخدام المنهج الإلزامي[1] الذي يقتضي إلزام الخصوم بلوازم أقوالهم وإضافتها إليهم ليتم تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم والحقيقة أن هذا المنهج الذي سلكه علماء العقائد لم يبتدعوه ابتداعا وإنما كان بتأثير مباشر من القرآن الكريم الذي حفل بالحديث المستوعب عن الأديان، والعقائد، والملل والنحل، وعرض مقالات هذه الملل والمذاهب بدقة واستقصاء ثم ناقشها وبين وجود القصور والزلل فيها وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾[المائدة، 17]. وقوله في آية أخرى ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ [الأنعام، الآية 101].

لذلك سجل القرآن مقالة من أنكروا وجود الصانع وقالوا بقدم العالم كالدهرية فيقول على لسانهم: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾[الجاثية 24].

وسجل القرآن مقالة من أنكر البعث في قوله:﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [المؤمنون، الآية 81-83].

لذا اهتم علماء الإسلام اهتماما بالغا بدراسة أديان الأمم وعقائدها، وطقوسها وعقدوا لهذا الغرض كتبا مفردة أو فصولا مطولة في مصنفاتهم كما فعل البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة" وابن حزم في موسوعته الضخمة "الفصل في الملل

---

[1] - يعرفه الإيجي بقوله أنه: القياس على ما يقول به الخصم لعلة فارقة توجد في الأصل الذي يقول به الخصم ولا توجد في الفرع الذي يقاس عليه.انظر: الإيجي،المواقف في علم الكلام،ط بيروت:عالم الكتب[د.ت]،ص34.

والأهواء والنحل" والشهرستاني في "الملل والنحل" كما نشأت كتب الردود نذكر منها ما كتبه الجاحظ في "الرد على النصارى"، وما كتبه ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" وتلميذه ابن القيم في مصنفه "هداية الحيارى في الرد على النصارى" وأخيرهم وليس آخرهم رحمة الله الهندي في كتابه العظيم "إظهار الحق".

وقد أضاف علماء هذا الفن إلى هذين الموضوعين موضوعات أخرى كموضوع الإمامة الذي انتظم في موضوعات هذا العلم بمجيء الإمام الشعري -رحمه الله - حيث أدرجه في مباحث هذا الفن للرد على الشيعة الذين نظروا إلى هذه القضية على أنها ركن الدين، وقاعدة الإسلام على حد تعبير ابن خلدون، وكدراسة أحوال الممكنات من حيث يتوصل بها إلى تقرير العقائد الدينية والدفاع عنها. ومن هنا ضمها علماء العقيدة إلى علمهم حتى يكون هذا العلم مكتفيا بنفسه لا يحتاج إلى الاستعانة بالعلوم الأخرى.

وأحسب أن توسيع موضوع علم العقيدة ليشمل سائر العلوم التي يتوقف عليها إثبات العقائد الدينية -كالطب والفلك والإحصاء.. أولى بالقبول في عصرنا الحاضر، عصر الانفجارات العلمية وحسب الدارس أن يرجع إلى الكتب التي اصطبغت بالمنهج العلمي في تدعيم قضايا الإيمان نخص منها "الله يتجلى في عصر العلم" و"العلم يدعو للإيمان" و"الإسلام يتحدى" و"الطب في محراب الإيمان" و"علم الإيمان" ليعرف أن موضوع علم العقيدة في عصرنا الراهن هذا يحتاج إلى الكثير من المباحث التجريبية والنظرية في إيضاح حقائق العقيدة الإسلامية بأسلوب العصر وروحه ومنهجه.

أما منهجه فهو يقوم على المزاملة بين الشرع والعقل، وهو إن كان يستند إلى الأدلة العقلية وصورها، فإن العقل لا يستقل بإثبات القضايا العقدية بل الوحي هو الذي يقرر تلك القضايا كي تصير جزءا من الدين، ودور العقل يقتصر على الدفاع عن تلك العقائد التي جاء بها الوحي والاستدلال لها. وتفصيل ما تركته لنا العقيدة على العموم وهذه الخاصية التي اتسم بها المنهج في

علم العقيدة نابعة من كون العقيدة جاءت عن طريق الوحي لذلك اصطبغ المنهج في علم العقيدة بصبغتين: صبغة دفاعية وصبغة استدلالية.

1-**الصبغة الدفاعية**: هذا العلم منطلق من حقائق ثابتة تكفل الوحي ببيانها والدفاع عن العقيدة سلك مسلكين:

أ-مسلك الإثبات: وبه تظهر صحة وأحقية تلك الأحكام.

ب-مسلك الرد: وبه تزيف وتبطل العقائد المخالفة والمناوئة.

2-**الصبغة الاستدلالية**: بين الدفاع والاستدلال خصوص وعموم والاستدلال يدخل في الدفاع وقد نشأ متساوقا في وجوده مع نشأة العلم ذاته وينقسم إلى قسمين: **أ-الاستدلال النقلي**: يقصد به أن يقع الانتصار لحقيقة ما بنص مأخوذ من الوحي قرآنا أو سنة، أو إجماعا، وقد ساد استعمال هذا الدليل عند السلف وأهل السنة -وهم جموع المحدثين والفقهاء ومن ورائهم -وكانوا يعولون عليه كثيرا-، لكن بمجيء إماما أهل السنة: الأشعري والماتوريدي نشأ ضرب من التوازن بين الدليل النقلي والعقلي، ثم أخذت كفة الدليل العقلي ترجح على حساب النقل عند المتأخرين منذ الجويني ومن جاء بعده.

ب-الاستدلال العقلي: يقرر معظم علماء العقيدة أن الدليل العقلي مقبول في قضايا العقيدة إلى جانب الدليل النقلي ما دام الوحي قد حث مع استخدام العقل وأمر بالنظر والاعتبار في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[فصلت، الآية 53].

ويقول القرآن الكريم في معرض حديثه عن منافذ المعرفة التي يدرك بها الإنسان الوجود حوله بعد أن يصبح مستعدا لذلك: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[النحل الآية 78].

ويقول أيضا: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[الغاشية الآيات 17-20].

إلى غير ذلك من الآيات التي تحض على النظر والاعتبار[1] وقد توسع المعتزلة والزيدية في استعمال هذا الدليل توسعا ملحوظا وكذلك فعل متأخروا الأشاعرة والماتوريدية كما نجد عند الإيجي والتفتازاني.

والحقيقة أن أغلب علماء هذا الفن أوجبوا النظر العقلي في الاستدلال على أصول العقيدة، ولم يقبلوا الاكتفاء فيها بالتقليد إذا وجدت القدرة والأهلية على النظر.

وإن حدث خلاف حول طريق وجوب النظر بين المعتزلة وجمهور علماء العقيدة إذ يرى الفريق الأول أن أصل الوجوب العقل، والجمهور على خلافهم إذ يراه يرجع إلى الشرع.

والواقع أن الاستدلال العقلي أدى دورا مهما في الدفاع عن العقيدة، ونصرتها، والاستدلال لها لتثبيتها وتقويتها بدلائل قدرة الله المبثوثة في كونه المنظور.

الفرق بين علم العقيدة والفلسفة:

رأينا سابقا كيف يتخذ علم العقيدة الاستدلال منهجا لإثبات قضاياه ومسائله توصلا بها إلى الحقيقة ولكن هذا المنهج الاستدلالي نراه في الفلسفة أيضا كما مر بنا آنفا أن موضوع علم العقيدة: "هو الموجود بما هو موجود" كما يصرح بذلك الإمام الغزالي وهذا موضوع الفلسفة فما الفرق بين علم العقيدة والفلسفة؟

يوقفنا ابن خلدون على الفرق بينهما منهجا وموضوعا حيث يقول:

و"اعلم أن المتكلمين لما كانوا **يستدلون** في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارئ وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا؛ والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات

---

[1]- انظر: الأعراف، الآية:14، يونس، الآية: 101، الرعد، الآية:3-4، النحل، الآيات:66-69، النور، الآية: 45، الروم، الآيات: 48-50، يس، الآيات: 33-40، فصلت، الآيات: 9-12، الملك، الآيات: 3-5، عبس، الآيات:24-32.

وهو بعض من هذه الكائنات إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث أنه يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث أنه يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات، إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد وبالجملة **فموضوع الكلام**، عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن **يستدل عليها** بالأدلة العقلية، فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد"[1].

ومعنى كلام ابن خلدون أن علم العقيدة علم يبحث عن العقائد الإيمانية سواء ما يتعلق منها بالله ﷻ أو بالرسل عليهم السلام أو بالأمور الغيبية السمعية في دائرة الشرع فهو يستمد العقيدة أولا من النصوص المتضمنة لها ثم يحاول بعد ذلك إثباتها بالبراهين العقلية ودفع الشبه عنها، فالمتكلم يعتقد أولا ثم يستدل ثانيا، ليعضد هذا الحق ببراهين عقلية وحجج منطقية ليتآزر النقل الصحيح مع العقل الصريح حتى إذا ما وصل إلى اليقين بطريق النظر والاستدلال ازداد يقينا وإيمانا ويحفزه على سلوك على هذا المنهج قول سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما سئل من الله تعالى: ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾[2] فطلب الطمأنينة بتضافر الأدلة مطلب عقائدي في دين الإسلام، أما الفيلسوف فهو يعتمد في استدلاله على العقل المجرد وحده دون عقائد موروثة، أو آراء مسبقة، ثم يعتقد ما أدى إليه عقله من نتائج وهذا ولا شك خلاف جوهري وأساسي بينه وبين عالم العقيدة.

والحقيقة أن أحكام الفلاسفة وبخاصة في المسائل الإلهية كثيرا ما تتناقض، وتتعارض وهو ما يبين قصور العقل في الوصول إلى اليقين في هذه القضايا الميتافيزيقية.

1- ابن خلدون، المقدمة، (مرجع سابق)، ص516.

2- البقرة، الآية: 260.

ويكفي أن نعلم لبيان هذا أنه كثيرا ما وصل الفلاسفة إلى نتائج في هذا المجال وظنوها حاسمة وأنها الحق، ولكن سرعان ما تبينوا خطأهم فيها.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن الثقة تضعف في الأحكام التي يصدرها العقل في هذا الميدان وبخاصة إذا لم يؤازرها وحي أو شرع متزل.

ويوضح لنا المؤرخ "أحمد أمين" الفرق بين موقف عالم العقيدة والفيلسوف فيقول:"إن موقف المتكلم كموقف محام مخلص اعتقد صحة قضية، وتولى الدفاع عنها يصوغ لها من الحجج والأدلة ما يؤيدها ويثبت ما اعتقد من صحتها.

أما موقف الفيلسوف فهو كموقف قاض عادل تعرض عليه قضية فهو لا يكون فيها رأيا حتى يسمع حجج هؤلاء وهؤلاء، ويزنها بميزان دقيق من غير تحيز، ثم يكون فيها رأيه ويصدر حكمه"[1]. وهذا الكلام إذا سلمنا به فإنه يحتاج إلى تدقيق أكثر، لأنه من الممكن أن يتوصل به إلى إثبات أمرين خطيرين.

أولها: العقل في الفلسفة منتج، وفي علم العقيدة عقيم.

الثاني: العقل في الفلسفة حر وفي علم العقيدة مقيد.

إلا أنه يمكن تفنيد هذين الزعمين بما توصلت إليه آخر اكتشافات العلوم الحديثة، إذ يقرر علماء العصر الحديث أن العقل لا يعمل إلا فيما تأتي به الحواس، ونحن نعلم أن الحواس محدودة ولها مجالات لا تتعداها فلا شك أن النتائج، والأحكام التي تأتي من هذا الطريق تكون محدودة وصحيحة في هذا المجال، لكن إذا تجاوزنا مجال المحسوسات فإن العقل لا يكون منتجا لعدم وجود معطيات له خارج هذا المجال ومثال ذلك المسائل الغيبية... كما أن العقل يمكن أن يثبت وجود قوة عظيمة تدبر أمر هذا الكون، والمخلوقات التي يراها وبذلك يصل إلى إثبات وجود الصانع ولكن يقف عند هذا الحد.

---

[1]- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط 10، بيروت: دار الكتاب العربي [د.ت] ج3، ص18.

فعندما يتجاوز العقل المحسوس يقع في التيه كما أن ما وصلت إليه الفلسفة يعد إشكالا لا إنتاجا وهو معنى يوضحه لنا العلامة ابن خلدون فيقول:

"والعقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال. وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكن للعقل حد يقف عنده ولا يتعدى طوره.حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه، وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه"[1].

وهذه الحقيقة التي قررها ابن خلدون منذ مئات السنين هي نفسها التي وصل إليها الفيلسوف الألماني الشهير إيمانويل كانط في كتابه الشهير "نقد العقل الخالص" وليس من الصحيح في شيء أن نقرر أن دور العقل في علم العقيدة عقيم بمجرد أن العقل لا يتبع العقيدة بل الوحي هو الذي يتكفل ببيانها، بل الواقع أن علم العقيدة ظل وفيا للعقل في أحكامه مقدرا لدوره في الاستدلالات غاية ما في الأمر أنه كان يرى أن هناك أطوارا وراء طور العقل لا يدركها العقل، ولكن هذه الأطوار لا تتناقض مع العقل البتة وهنا ينبغي أن نميز بين ما يتناقض مع العقل، وبين ما يتجاوز حدود العقل –أي ينبغي أن نفرق بين محالات العقول ومحاراتها- على حد تعبير حجة الإسلام الغزالي.

فالقضايا الغيبية التي أتى بها الوحي مثلا تمثل ما يتجاوز حدود العقل لأنه لا يستقل وحده بإدراكها، ولكنها في الوقت نفسه لا تتناقض مع المعطيات العقلية هذا ما يمكن أن نرد به بالنسبة للزعم الأول.

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، ط بيروت: دار الكتاب اللبناني والاشتراك مع مكتبة المدرسة 1982م، ص825.

أما بالنسبة للزعم الثاني فإن منطقنا يكون هل الفكر البشري حر؟

إن الحرية أمر نسبي ذلك لأن كثيرا من الفلاسفة الذين ادعوا الحياد، وعدم الانحياز لجانب أي فكرة كانوا في الواقع ضحايا أفكار خفية في نفوسهم، وقد عملت عملها دون أن يشعروا وهناك حقيقة في علم النفس مفادها **أن النفس البشرية تعمل أضعاف أضعاف ما لاتشعر به مما تشعر به**، وهناك حقيقة أخرى يؤكدها علماء الاجتماع مؤداها **أن الإنسان لا بد أن يتأثر ببيئته وبمجتمعه**، ولعل هذا ما كان ملحظا للفيلسوف باسكال (ت1662هـ) حينما قال للاعتقاد وسائل ثلاث: العرف، والعقل، والإلهام، وقديما قال أبو العلاء المعري:

وما دان الفتى بحجا ولكن يعلمه التدين أقربوه

فأغلب الناس يأخذون عقيدتهم، ويؤمنون بما يؤمن به ذووهم وفي الحديث الصحيح «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه»[1]. والحقيقة أن العقل في العقيدة حر لأن العقيدة عرضت علينا لنقبلها أو نرفضها، ومن أخص منهج علم العقيدة أنه يرفض الإكراه رفضا قاطعا في تثبيت قضاياه في نفوس الناس ذلك أن قضايا العقيدة حقائق باطنة مستقرها القلب البشري، وما كان كذلك فلا ينبغي أن يفرض بل يعرض، ولذا قال القرآن الكريم: ﴿لا إكراه في الدين﴾[2] وقال في آية أخرى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3] وخاطب رسوله ﷺ في آية أخرى بقوله ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[4] وخاطب رسول في آية أخرى بقوله ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾[5]، ولذا طلب الدين الإسلامي من

---

[1]- مسلم، كتاب القدر رقم الحديث 2658. البخاري، كتاب الجنائز، رقم الحديث 1359و1385.

[2]- البقرة الاية 256.

[3]- الكهف الآية 29.

[4]- الغاشية الآية 21.

[5]- البقرة 272.

البشر تحرير العقول وتطهير الأذهان من الشوائب والموروثات. ومما سبق يمكن أن نستنتج أنه ما دام المنطلق ينبني عن طريق النظر العقلي الحر فإن ما يأتي بعده فهو متبنى بطريق حر.

فذلكة لا بد منها:

غير أن شيئا واحدا يشكل على فهم هذا الذي أوضحناه ويمد غاشية من الغموض والاضطراب وهو الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويوتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم، وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» إذا فكيف يمكن فهم هذا الحديث على ضوء ما قد علمناه من أن الدعوة إلى الإسلام يجب أن تتم في نطاق الاختيار وحرية اتخاذ القرار يقول "سعيد رمضان البوطي" في الجواب عن هذا السؤال الوجيه في كتابه "الجهاد في الإسلام":

"إن المشكلة تنشأ في ذهن الباحث في هذا الموضوع من عدم تنبهه إلى الفرق بين كلمتي أقاتل وأقتل مع أن بينهما فرقا كبيرا لا يخفى على العربي المتأمل، لقد كان الحديث مشكلا حقا لو كان نصه هكذا «أمرت أن أقتل الناس حتى...» إذ هو يتناقض عندئذ مع سائر الآيات والأحاديث الكثيرة الأخرى الدالة على النهي عن القسر والإكراه.

أما التعبير بأقاتل وهو الكلمة التي عبر بها رسول الله ﷺ فيما أجمع عليها الرواة فليس فيها لدى التحقيق ما يناقض النصوص والدلائل التي أطلنا في بيانها، ومن ثم فليس في فهم الكلمة أي إشكال.

وبيان ذلك أن كلمة "أقاتل" على وزن "أفاعل" تدل على المشاركة، فهي لا تصدق إلا تعبيرا عن مقاومة من طرفين، بل هي لا تصدق إلا تعبيرا عن مقاومة لبادئ سبق لقصد القتل. فالمقاوم للبادئ هو الذي يسمى مقاتل أما البادئ فهو أبعد ما يكون عن أن يسمى مقاتلا بل

هو في الحقيقة يسمى قاتلا بالتوجيه والهجوم أو بالفعل والتنفيذ إذ لا ينشأ معنى الاشتراك إلا لدى نهوض الثاني للمقاومة والدفاع"[1]، ويزيد العلامة البوطي هذا المعنى إيضاحا فيقول:

"ألا ترى أنك تقول: لأقاتلن هؤلاء عن ممتلكاتي أو على عرضي، فلا يفهم أحد من كلامك هذا أنك عازم على مجاهة العدوان منهم على مالك أو عرضك، فقتلك لهم إنما يأتي بعد توجههم إليك بالعدوان"[2]. إذن فما معنى هذا الحديث، يجيب البوطي فيقول معناه: "أمرت أن أصد أي عدوان على دعوتي الناس إلى الإيمان بوحدانية الله ولو لم يتحقق صد العدوان على هذه الدعوة إلا بقتال المعادين والمعتدين فذلك واجب أمرني الله به ولا محيص عنه"[3].

والواقع أن ممارسات الرسول ﷺ لا إكراه فيها لأحد على الدخول في الإسلام وشهادة أن لا إله إلى الله وأن محمدا رسول الله، وكذلك كانت ممارسات الخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عنهم أجمعين، والغريب أن يصر خصوم الإسلام كل الإصرار على أن الإسلام دين انتشر بحد السيف وهذه لا شك أعنف وأقوى وأغشم فرية ضد الإسلام في العصر الحديث.

مقارنة بين منهج الفلسفة واللاهوت وعلم العقيدة:

الفلسفة تعتمد على المنهج العقلي بحيث تجعله أداتها المفضلة، وعدتها في البحث والتأمل، والتحليل، والتعليل، ثم الاستنتاج والصياغة وفق قواعد منطقية دقيقة يقلبها العقل من كل جانب ليتأكد من صحتها وسلامتها ومعنى ذلك بصريح العبارة أن الفلسفة نقطة انطلاقها الأولى وموقفها الأمثل هو الحذر وعدم التسليم بأية فكرة مهما كانت من المسلمات قبل فحصها والشك فيها وضرورة التجرد الكامل، والتخلص التام من الأفكار المسبقة ثم بعد ذلك

---

[1]- سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه؟، ط1، دمشق دار الفكر، 1993 ص58-59.

[2]- المرجع نفسه والصفحة.

[3]- المرجع نفسه والصفحة.

يصدر العقل أحكامه ويعلق نتائجه بصرف النظر إن كانت تلك الأحكام أو الأفكار ملتزمة أو غير ملتزمة بالدين.

أما منهج علم العقيدة أو حتى علم اللاهوت، فإن منطلقه الأساسي مسلمات عقدية وحقائق إيمانية مصدرها الوحي، وإن كان ثمة خلاف بين علم العقيدة وعلم اللاهوت فيتمثل إن منهج هذا الأخير قوامه الشرح، والبيان، والتفسير، و لم يكن يجنح للدفاع إلا بصفة ثانوية لأن عقائد النصرانية عقائد مبهمة، وغامضة مثل اعتبارهم عيسى عليه السلام أقنوما من أقانيم ثلاثة مكونة لله، سبحانه وتعالى عما يصفون.

و لم يستطع الفكر النصراني على ما رزق من أذكياء، وعلماء مقتدرون، وفلاسفة مهرة من تدعيم هذه العقائد بحجج منطقية عقلية، لذا فليس بمستغرب أن يقول القديس أوغسطين: "أومن بهذا لأنه محال"، ونجد الأدبيات النصرانية تعج بمثل "الجهالة أم التقوى" ولعل هذا ما كان ملحظا لأحد علماء الغرب فقال: "ليس على الإيمان أن يجد مسوغات تجاه الإلحاد ولكن عليه أن يجد مسوغات تجاه نفسه".

أما المنهج في علم العقيدة فهو يقوم على الجمع بين العقل والنقل، وغايته الأساسية المحافظة على العقيدة الإسلامية وقد اصطبغ هذا المنهج بصبغتين: الصبغة الدفاعية والصبغة الاستدلالية، و لم يكن هذا المنهج يجنح للتفسير إلا قليلا لأن من خصائص العقيدة الإسلامية أنها عقلية – أي مبرهن عليها – وواضحة وبسيطة.